نجيب محفوظ.. شيخ الحارة المصرية وفيلسوف السينما العربية:

المكسيك اعادت انتاج اهم افلامه وقدمت الحارة بشكل فلكلوري

القاهرة ـ «القدس العربي»
ـ من كمال القاضي:

تشكلت السينما بأدب الكاتب الكبير نجيب محفوظ فأخذت ملامح من روحه وابداعه وطرحت الوانا من حيرته وافكاره كفيلسوف يبحث عن معنى للكون والحياة، وتلاقت احلام المخرجين الباحثين عن الجديد مع تصورات محفوظ الابداعية فجرت على الفور عمليات تحويل النص الادبي الى دراما حية من لحم ودم، وازاء هذا الاكتشاف السينمائي للمنجم الابداعي تعددت الرؤى الفنية ـ الدرامية بتعدد ما طرحه نجيب محفوظ من افكار وملامح وتفاصيل النفس البشرية التي تموج داخل العقل والوجدان وتعكس وهج الروح وترصد الواقع بتداعياته ومتغيراته الانسانية والاجتماعية في تلامس يشي ببصيرة واعية وعقل تدرب مبكرا على التأمل والنقد، وهي خصائص ظلت فاعلة وحيوية في الادب الواقعي الذي نقله محفوظ الى السينما بعد فروغه من رحلات البحث داخل التاريخ الفرعوني والذي تجلى في عدة روايات كان اولها، «عبث الاقدار» باكورة انتاجه الادبي على الاطلاق والتي تلاها برواية «رادوبيس» ثم «كفاح طيبة». بعد انقضاء هذه المرحلة كتب فيلسوف الرواية العربية روايته الشهيرة «القاهرة الجديدة» ليقف على مشارف مرحلة مختلفة يعتني فيها بالواقع المحلي ويرسم خريطة مغايرة لما هو سائد في الكتابات الاخرى، حيث اثبت ان الادب يمكن ان يصبح جزءا من حياتنا اليومية، وبالفعل كسب نجيب محفوظ الرهان بعد ان تحولت رواية «القاهرة الجديدة» الى فيلم سينمائي بعنوان «القاهرة 30» رصد فيه المخرج صلاح ابو سيف آيات الفقر والبؤس ومظاهر النفاق والتدليس وبيع الشرف كما كتبها صاحب الرؤية والرواية بعبقرية واقتدار، اذ اجرى نوعا من الجراحة التشريحية للمجتمع في تلك الفترة وازاح عنه غلالة الحياء فبدا عاريا تتكشف عوراته في وضوح شديد، فالبطل يمارس السقوط مدفوعا بالفقر ويقايض على نزاهته وعفته بالمال اتقاء العوز والحاجة ويتسلق اشجار الرفعة وينتقل من طبقة الى طبقة بعدما يكون قد دفع ثمنا باهظا ليصير بعد ذلك «ذا القرنين» كما صوره صلاح ابو سيف في مشهد رمزي تبدو فيه الادانة الاخلاقية هي العنصر الاساس في الكدر، ولا شك ان شخصية محجوب عبد الدايم التي اداها باقتدار الفنان حمدي احمد ظلت وصمة في جبين المجتمع الطبقي قبل قيام الثورة.

وعلى نفس المنوال وبذات المذهب الواقعي ادان محفوظ ايضا الشخصية الانتهازية في «اللص والكلاب» و«ميرامار» وفضح الممارسات الفردية، ولكنه وضعها في ذات الوقت في سياقها الانساني وربط بين الجريمة كفعل والدوافع المحيطة بالبطل، وبالطبع لم يكن المجتمع والنظام السياسي خارج حدود المسؤولية.

وعلى عكس ما يشاع عن صاحب نوبل كان الرجل ينطلق في احكامه الفكرية من منطلقات سياسية يعمل فيها الرمز كاشارة دالة على المرحلة والتاريخ والاشخاص، ولعل ذلك ما عكر صفو العلاقة بينه وبين النظام الناصري في فترة الستينات، حين نشأ خلاف عارض سرعان ما زال، خاصة ان ايا من اعمال محفوظ لم تصب بسوء او تصادر اللهم الا رواية «اولاد حارتنا» التي اعتبرت خرقا للمقدسات، ومع ان محفوظ كتب في تلك الاثناء اعمالا انتقدت النظام الناصري مثل مجموعته القصصية «تحت المظلة»، «خمارة القط الاسود» الا ان عبد الناصر حرص عليه كأديب متميز ومشروع نهضوي كبير.

وبرغم واقعيته وانغماسه داخل الحارة والتحامه الشديد بالبسطاء والدهماء وعوالم الفتونة والفتوات ظل طوال مسيرته الابداعية التي امتدت الى نحو سبعين عاما مشغولا بالعالم الغيبي ـ الميتافيزيقي ـ ففي ملحمة «الحرافيش» التي هبطت السينما بمعانيها الفلسفية والروحية وتعاملت معها بوصفها نمطا فنيا يسمح باتساع رقعة «الأكشن» وزيادة ايرادات الشباك كان الهاجس الحقيقي للكاتب هو التسامي والترفع عن الامور الدنيوية والانشغال بالنوازع الروحية وما يحرك المشاعر في اتجاه العقل، وربما يتضح المعنى من طبيعة البطل «عاشور الناجي» المثالية ورغبته العارمة في الوصول الى الحقيقة وكشف ما وراء الحجب حيث عالم الدراويش الذي يكتنفه الغموض ويثير الدهشة والخيال، وكما يدلل محفوظ على شغف ابطاله وولعهم بما وراء الطبيعة في «الحرافيش» يواصل بحثه ايضا عن الباطن والمستتر في الكون المطلق فيسبح في اخيلة العامة والمثقفين ساعيا الى سر الوجود في عقلية «حمزاوي» بطل رواية «الشحاذ» الرجل البائس على وجهه، المتشكك في الحقائق، تلك الشخصية التي جسدها الفنان القدير محمود مرسي ونقلها لنا بصدق عبر اداء متميز وصل الى حد الصدمة من فرط الاتقان، حيث توحد المتلقي مع الشخصية فصار جزءا منها وانتقلت اليه كل شكوكه وهواجسه.. في «قلب الليل» يهجر جعفر الراوي بيت الجد ويخرج الى فضاء الحرية في محاولة للبحث عن ذاته المفقودة وآماله الضائعة تحت وطأة الوصاية والحذر، يستسلم جعفر للغواية وينطلق وراء الغجرية التي تجاوب معها احساسه من الوهلة الاولى فيغوص في مستويات متضاربة من اللذة والوحشة والاغتراب ليعود بعد فترة ادراجه يراوده حلم قديم قلما عبر عنه في حياته الجافة مع جده الراوي الكبير.. حلم «الغناء» مع صديقه «شكرون» ليصطدم ايضا بالفشل، اذ يستعصي عليه مجاراة حياة العوالم وواقع الافراح بالاحياء الشعبية، ومن هنا يقرر ان يصبح اديبا ومفكرا تأثرا بثقافة السيدة الارستقراطية التي احبته ونقلته مرة اخرى الى القصور ليعود من حيث اتى مكررا نفس الازمة، فالواقع الجديد يتجاوزه بمعارفه وثقافته الرفيعة وفلسفته الجدلية التي لم يعهدها في تجاربه الحياتية وخبراته السابقة فيضطر الى اعتزال زوجته ومجلسها الثقافي ويعكف على القراءة والاطلاع فترة طويلة ثم يعود ليجد نفسه ما زال مغتربا عاجزا عن المسايرة والدخول في معية المفكرين والفلاسفة فيلجأ الى القتل كحل لمقاومة الجهل واعلانا لتمرده وانتصاره، وهكذا تلوح في الافق عقدة النقص التي لعب عليها نجيب محفوظ ونسج منها فكرته عن عزلة الانسان داخل محيطه واسلمها الى السينما لتنقل وقائع الرواية بشيء من التجريب وكثير من الفلسفة التي تتداخل فيها معطيات الواقع بالخيال، ومن خلال رؤية فنية قدم لنا المخرج عاطف الطيب مع الفنان نور الشريف الذي لعب دور جعفر الراوي انتكاسات البطل المأزوم واخفاقاته بعد رحلة طويلة من البحث عن ذاته المسلوبة، ويذهب الفيلم مع الرواية الى ما هو ابعد من شخصية جعفر التي استخدمها نجيب محفوظ كرمز لسيدنا آدم عليه السلام في الارض، فالحفيد المتمرد هو امتداد للجد «الراوي الكبير» الذي جسده الفنان فريد شوقي ويعني الامتداد هنا ان الانسان بطبيعته عنيد وباحث ومكتشف، وربما يكون ذلك هو الهدف من وجوده على الارض، ومما لا شك فيه ان الفنان نور الشريف قد وعى المعنى الباطن في الشخصية فاقترب منها ولامس روحها وادرك بعدها الفلسفي ونجح في التواصل معها وان ظلت المسافة بين جعفر الراوي والجمهور شاسعة، وهذا بالطبع يرجع لصعوبة الشخصية وتعدد مستوياتها النفسية والدرامية.

نور الشريف في لقطة من فيلم «قلب الليل» عن قصة لنجيب محفوظ

لقد انتبهت السينما العالمية، وخاصة المكسيكية الى البعد الانساني في ادب نجيب محفوظ بعد حصوله على «نوبل» عام 88 فاقبلت على اعادة انتاج عدد من الافلام يبرز منها فيلم «زقاق المدق»، «بداية ونهاية»، «اللص والكلاب»، وهذه الافلام ترجمت الى العديد من اللغات وشاركت في معظم المهرجانات الدولية وعرضت بمصر على هامش مهرجان القاهرة السينمائي الدولي قبل ست سنوات تقريبا. ولم يكن نجيب محفوظ روائيا فحسب ولكن علاقته بالسينما توطدت على نحو مختلف بعد ان اصبح جزءا من صناعتها وصياغتها فقد كتب عددا غير قليل من السيناريوهات لافلام مثل «الطريق المسدود» و«الناصر صلاح الدين» و«جعلوني مجرما» و«الوحش وجميلة» وقد اكتسب الاديب مهارة كتابة السيناريو من صديقه المخرج صلاح ابو سيف في فيلم «درب المهابيل» وعليه اكسب الاديب السينما مذاقا خاصا واضاف اليها الكثير من خبراته الابداعية في الرواية والقصة القصيرة. ويختلف ادب نجيب محفوظ المنتج سينمائيا عن غيره من الادباء الذين كان لهم الحظ في تحويل رواياتهم الى افلام وان تشابه مع البعض منهم مثل عبد الرحمن الشرقاوي الذي قدم للسينما رواية «الارض» حيث يتشابه هذا العمل من حيث واقعيته مع ما كتبه محفوظ عن الحارة فالاثنان يرمزان الى الوطن وينقلان صورة حية لارتباط الانسان المصري بموطنه الذي يمثل جزءا أصيلا من تكوينه وتراثه فالارض عند عبد الرحمن الشرقاوي تعادل بالنسبة للفلاح الحياة وفقدانها هو الموت او النفي، وكذلك الحارة عند نجيب محفوظ هي الوجود والكرامة كما في عالم الفتوات والحرافيش الذي تلزمه القوة لتثبيت الاقدام وبسط النفوذ على الحارة واهلها وهو البعد «الميكافيلي» الذي يمكن استنتاجه في استخدام الفتوات للقوة كوسيلة لحماية اهل الحارة من ناحية وقمعهم وضمان ولائهم من ناحية اخرى، فالغاية هنا تبرر الوسيلة من وجهة نظر ابطال الرواية.

سلمى حايك في ملصق فيلم «زقاق المدق» بنسخته المكسيكية

ولعلنا نرصد ايضا في المقارنة بين حارة نجيب محفوظ ورواية «دماء وطين» للأديب الكبير يحيى حقي التي قدمت بالسينما تحت اسم «البوسطجي» علاقة اخرى تتمثل في «الشرف» كقيمة يستلزم فقدانها او التفريط فيها القتل مثلما حدث للبطلة «جميلة» التي حملت سفاحا فقتلها والدها الفلاح حفاظا على سمعته ومكانته، وهذه الجزئية تعرض لها محفوظ ضمنا في كثير من رواياته والمح بشكل خاص الى فلسفة الشرف ومفهومه عند ابناء الطبقة الوسطى كدليل على الطهارة والعفة، كما ورد في فيلم «بداية ونهاية» حين ارغم الضابط حسانين شقيقته نفيسة على الانتحار والموت غرقا اثر علمه بضبطها بأحد بيوت الدعارة. وفي تقديري ان السينما استفادت كثيرا من تلك الرؤى الابداعية في معالجتها للقضايا الاجتماعية ذات الحساسية الخاصة، لا سيما ان يوسف ادريس تناول ايضا قضية الشرف في رواية «الحرام» التي تحولت كذلك الى فيلم طرح بعدا اخلاقيا يتصل بعملية الحمل السفاح وثقافة المجتمع القروي في تعامله مع مثل هذه الحالات، واتصور ان شيئا من هذا القبيل ناقشه يوسف ادريس في رواية «النداهة»، ولكنه لم يكن متعلقا بعملية الاغتصاب قدر ما كان مرتبطا بمفهوم الغواية وتأثير المدينة الساحر على ابنة القرية واستجابتها اللحظية للاطفة البكوات، ويعد هذا الدور واحدا من ادوار ماجدة الصباحي المتميزة فقد جسدت دور الفلاحة الساذجة زوجة البواب «شكري سرحان» الذي يغار عليها من البكوات ساكني العمارة وملاكها. وفيما يتشابه الثلاثي عبد الرحمن الشرقاوي ويحيى حقي ويوسف ادريس في بعض الاطروحات الادبية الدرامية مع نجيب محفوظ يختلف احسان عبد القدوس في رسم شخصياته وتكوينها فاحسان كان معنيا بمجتمع الاثرياء اكثر من اهتمامه بأبناء الطبقات الشعبية فهو ينظر من موقع الرجل البرجوازي الى الواقع الذي يألفه، ففي «النظارة السوداء» على سبيل المثال يدخل بنا المحيط الاجتماعي لفتاة ارستقراطية مستهترة «نادية لطفي» ليفتش في حياتها الشخصية وتتعرف على نماذج من علاقاتها المفتوحة واجوائها المليئة بالصخب والملذات، فهو هنا يطرح شكلا مغايرا للحياة الشعبية لا يعدو واقعا خاصا بالصفوة ولا يمكن ادراجه ضمن القاموس الاجتماعي للمصريين، ومن ثم يصعب استيعابه او الالتفاف حوله كفن يعبر عن الاغلبية مثلما هو الحال عند نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي ويحيى حقي ويوسف ادريس، فالاربعة برغم مذاقهم المختلف الا انهم من حيث الموضوع يمكن جمعهم في وحدة واحدة، ولكن يظل رائد الواقعية الروائية في السينما هو نجيب محفوظ بلا منافس فسبعون عاما من العطاء والبذل تكفي لتتويجه ملكا على عرش الرواية المكتوبة والمصورة فليس لدى السينما محفوظ آخر.

تداعيات

محفوظ و«الكلاب»

سهيل كيوان*

■ كثيرة هي التعازي التي أرسلت للسلطات المصرية برحيل الأديب والروائي العالمي نجيب محفوظ، ولكن أكثرها إثارة والتي بلا شك هزّت مشاعر المثقفين العرب حتى الدموع هي تلك التي أرسلها الرئيس الأمريكي بوش الغني عن التعريف بثقافته الشاملة والذي وُصف أكثر من مرة بأنه أذكى وأكثر رؤساء الولايات المتحدة اطلاعا على ثقافات الشعوب وخصوصا العربية والإسلامية منها، هناك جانب مجهول في حياة الرئيس الأمريكي الطيب لا يعرفه إلا المختصون بتاريخه، وهو عشقه الكبير الذي يصل حد الهوس للثقافة العربية والإسلامية، مثلا هو يحفظ عن ظهر قلب أجزاءً كبيرة من رباعيات الخيام رغم أن مؤلفها فارسي سعى لإنتاج المياه الثقيلة، ويردد بعض الرباعيات كلما استبد به حنين للكأس والصبابة، وكثيرا ما حرّض توني بلير على العرب أقصد التعرف على ثقافتهم وعدم الإنجرار وراء المتطرفين العنصريين وأخذ أمة كاملة بجريرة أفراد! ومن مآثر بوش الثقافية أنه أوصى جيشه قبل غزو العراق وبتأثر من وصية أحد الخلفاء الراشدين بأن لا يقتلوا عجوزا ولا طفلا ولا امرأة ولا يقطعوا شجرة ولا يهدموا بيتا أو قرية إلا على رؤوس أصحابها وفقط بطائرات الـ B 54 كي لا ترى العين ولا يحزن القلب. قلائل هم الذين يعرفون أن بوش يحتفظ بنسخة نادرة من الفتوحات المكيّة للشيخ الأكبر محي الدين بن عربي كان قد أوصى جنراله جون ابي زيد بإحضارها له ولو نهباً من متحف بغداد! وهو الذي أمر شخصياً بتهريب آثار العراق الى أمريكا أو حتى الى سوق الآثار السوداء في اسرائيل لحفظها من رعاع بلاد الرافدين ليضمن سلامة تراث هذا الشعب العريق الذي قال عنه بوش «إنه شعب يستحق الحياة ولو في زنازين أبو غريب»! هناك سر لا يعرفه سوى القلائل بأن بوش تدخل شخصيا لوقف تدمير لبنان بعد أن تمادى عمير بيريتس وجيشه وكادوا يدمرون آثار بعلبك التاريخية وبعد أن تعطلّت بعض دور النشر في بيروت عن عملها بسبب الحرب! كذلك يسجل لبوش أنه قارئ نهم للأدب العربي وهو مطلع على مؤلفات يوسف ادريس ومحفوظ وميخائيل نعيمة بشكل خاص حتى قبل رحيلهم وطبعا قبل حصول المرحوم محفوظ على نوبل بسنين طويلة! وكثيرا ما ردد في جلساته الخاصة أنه أحب شخصية سعيد مهران بطل رواية «اللص والكلاب» ومنها استقى أفكاره بالعفو عن المظلومين والمستضعفين في الأرض وهذا سر تعاطفه مع السيد حسن نصر الله وإمهاله مدة شهر لتحطيم وحدات النخبة وتلقين (المركباه) ومرسليها درسا في الفن والأخلاق! تأثر بوش برواية «أولاد حارتنا» جدا وهذا يفسرّ رؤيته التاريخية الفلسفية المتسامحة والمتفهمة للآخر وللضعف الإنساني وقد وصل به الأمر الى التهديد بوقف المساعدات الأمريكية عن مصر ما لم تسمح سلطاتها بنشر الرواية ومن هنا مصدر مقولته الشهيرة «لا فضل لأمريكي على عربي إلا بالصواريخ الذكية والقنابل العنقودية»! بوش صديق المبدعين ومستعد أن يؤجل حربا فقط كي يشاهد برنامجا أو فيلما عن حياة مبدع، يقال أنه أجل اعطاء الضوء الأخضر لعرفات بهدم الكنيست على رأس شارون وحكومته لعدة ساعات لانشغاله بمشاهدة برنامج «خليك بالبيت» مع زاهي وهبة! ولهذا فهو يتأثر ويحزن الى حد الاكتئاب برحيل المبدعين الناطقين بالضاد، هكذا كان موقفه عند وفاة محمد الماغوط وقبله سعد الله ونوس وممدوح عدوان وابن المقفع الذي تقطع قلبه عليه عندما سمع بخبره، وهناك سر أصبح معلنا أن سبب توتر علاقاته مع سورية هو موقف النظام السوري من بعض المبدعين المناوئين للنظام، ولكنه لم يعلن هذا صراحة خوفا من اللوبي الصهيوني في البيت الأبيض.

أما السبب الحقيقي في انقلابه وحقده المتفاقم على العرب في السنوات الأخيرة فقد جاء كردة فعل طبيعية على محاولة اغتيال نجيب محفوظ بيد متطرف عربي إسلامي عام 1994! يومها قال مقولته الشهيرة «إذا وفقني الله وصرت رئيساً بعد والدي فسوف أقتل من العرب مليونا من غزة الى عيثا الشعب مروراً بالفلوجة كي لا يخرج من سلالتهم من يرفع يده على مبدع!» بوش ظاهرة نادرة في عالم السياسة المنصهرة بالثقافة، فهو الذي نصح آل سعود (من تحت بطن) بعقد الصفقة العظمى بترجمة كل التراث الأدبي والعلمي الإنكليزي الى العربية بتكلفة 17 مليار دولار! في طريقي الى الناصرة سمعت المذيعة المصرية تقرأ تعزية بوش التي يستهلها بأنه شعر بالحزن على رحيل محفوظ فضحكت من كل قلبي كما لم أضحك منذ تشجيع بوش لإسرائيل على إلقاء 300 ألف هدية عنقودية الى أطفال لبنان! وتخيلّت نجيب محفوظ في جنات الخلد وقد تقدم منه أحد الملائكة ليخبره بأن الرئيس الأمريكي بوش حزن لرحيله! «الله بوش زعلان على شان خاطر وفاتي! إيه المسخرة دي» ويطلق قهقهته الشهيرة!

فوجئ مرة ثانية

لا بد أن السيد حسن نصر الله الذي لم يتوقع أن تصل همجية العدوان الإسرائيلي الى ما وصلت إليه وكذلك لم يتوقع بأن يصل التواطؤ العربي الى حد التشجيع على تصفية المقاومة، فوجئ مرة أخرى للتفسيرات الحاقدة والشامتة والتافهة التي تناولت اعترافه الذاتي الشجاع والذي في نهاية المطاف يضيف قوة لقوته وعظمة لعظمته وانتصارا لانتصاره الواضح كعين الشمس.

* كاتب من فلسطين

شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي

هيثم سرحان*

■ يستعرض الباحث شعيب حليفي في كتابه الموسوم بـ «الرحلة في الأدب العربي: التجنس... آليات الكتابة... خطاب المتخيل» (رؤية للنشر، القاهرة، 2006) الرحلة في الأدب العربي بصفتها نصاً ثقافياً تنكشف فيه الذات العربية والمسلمة انكشافاً إضافياً ومركزياً من خلال صورتين بارزتين هما صورتا: الأنا والآخر. فالنص الرحلي، بحسب شعيب حليفي، أحد أهم النصوص الثقافية القادرة على كشف جوانب الهوية العربية والإسلامية ومعرفة حساسيتها، ورصد استجاباتها وتفكيك مكوناتها واستراتيجياتها الثقافية وأكثرها غنىً وأشدها ثراء وإنتاجاً للمفاهيم الثقافية، لما يقدمه من تفاصيل متنوعة وزاخرة.

وينطلق الباحث حليفي من تحديد منهجي مفاده أن الرحلة العربية، قبل القرن الثامن عشر، كانت تستهدف زيارة الأماكن المقدسة والمعالم الدينية، توكيداً لعمق روابطها ورموزها في المخيال العربي ودفاعاً عن حضورها في الثقافة والفكر. إلا أن الرحلة، بعد هذا التاريخ، ستطرأ على دوافعها تحولات مهمة وأهداف جديدة من أبرزها: اكتشاف الآخر، وإدراك قوته وتطلعاته، ورصد أمكنته، ومعرفة تقاليده الثقافية، تمهيداً لمحاورته ونشر الثقافة الإسلامية وتعاليمها، إضافة إلى سبب يرتبط بالذات العربية وهو البحث «عن تفكيك مأزق الذات» وكشف أسباب انكسارها وتراجع مشروعها الثقافي. لهذه الأسباب وغيرها نشأ تحول في أشكال الرحلات العربية وغاياتها، فكان أن تشكلت الرحلات السفارية، والجغرافية، والسياحية.

ويميّز الباحث حليفي بين مستويات الرحلة من حيث: الوقائع التسجيلية، والانطباعات، والوصف، والمشاهدات، والغايات المعلنة، والدوافع المضمرة، إضافة إلى إشارته إلى تعدد الأشكال التي ينطوي عليها النص الرحلي، فهو يتضمن: توثيق الأحداث، ورصد الأخبار، وكتابة السير، والتراجم، وتدوين الرسائل، علاوةً على انفتاحه على التجربة الإنسانية المتداعية زماناً ومعرفة ومكاناً، مما يجعله غنياً بالثيمات والدلالات المتناسلة والعلامات المتوالدة. ويرى حليفي أن هذه المستويات والأشكال الخطابية يكاد النص الرحلي يتفرد بها عن بقية النصوص الأخرى، ذلك أن طاقته التعبيرية التخييلية الناجمة عن تداخل كل المستويات والأشكال قادرةٌ على ضخ المفاهيم والدلالات ذات الخصوصية الشديدة التي لا تملكها النصوص الأخرى التي توقفت واقتصرت على إنتاج مفاهيم ودلالات نسقية. لذلك كله، يكتسب النص الرحلي فرادة تكوينية، إذ يدفع المقاربات إلى تجديد الأسئلة الثقافية وإضاءة المساحات الجديدة.

على أن ثراء النص الرحلي يجعله عرضة للتجزئة والاستبعاد، إذ غالباً ما يعمد النقاد إلى إخضاعه لمعايير الكذب والصدق بحثاً عن «الحقائق»، وفي هذه النقطة يقترح حليفي ضرورة احترام الشكل التعبيري وتقطيع النص وكشف مراحله ثم تفكيك آليات الكتابة التي تصهر المراحل كلها.

وبحسب حليفي، فإن شخصية الرحالة وثقافته تؤديان دوراً مضاعفاً في تشكيل النص الرحلي حيث تتعالق الذات بالشكل والمرجع، لذلك يختلف النص الرحلي باختلاف ثقافة الرحالة وممتلكاته المعرفية وخلفيته الإبداعية فقد يصطبغ النص الرحلي بصبغة تأريخية أو جغرافية أو أدبية أو تصنيفية أو سفارية، الأمر الذي يحتم على الباحث دراسة علاقة الرحلة بالحقول المجاورة.

وتستمد الرحلة العربية جذورها الثقافية من النص القرآني الذي كان عاملاً حاسماً في انبثاق السرد بأشكاله المختلفة وخطاباته المتعددة. ونظراً الى الحوافز المعرفية التي نجح النص القرآني في ترسيخها، اتجهت الثقافة العربية نحو رصد مختلف التجليات التي يحيل إليها هذا النص لكشف دلالاته ورموزه الثقافية بدءاً بمباحث الإعجاز البلاغي والقصص القرآني كمرحلة أولى ومروراً بالسرد التاريخي المتمثل في نصوص الأخبار، والمغازي، والسير، والتراجم، والطبقات، وتاريخ المسالك والممالك كمرحلة ثانية، وانتهاء بالسرد الديني المتمثل في وقائع الأنبياء، وأخبارهم، وقصص الأمم الغابرة، وحكايات الخلق، وسير الملوك، والغزاة كمرحلة ختامية.

ونتيجة تحولات السرد العربي وتعقد مساراته تبدو نصوصه في غاية التشابك والتداخل، ويضاف إلى ذلك تنامي وظائفه، إذ حقق انتقالاً تدريجياً وتطوراً فنياً هائلاً أدى إلى انتقاله من المساحة الدينية المحددة بدوافع كشف دلالات النص القرآني إلى السرديات الثقافية بمعناها الأوسع والأشمل، الأمر الذي أدى إلى ميلاد أشكال سردية ذات طبيعة أدبية مفتوحة على الدلالات الثقافية المجاورة التي تكفل النص الثقافي العام برعايتها وحفظها.

وخلاصة القول: إن عمل الباحث شعيب حليفي يتضمن جهداً منهجياً مميزاً يتمثل، على وجه الخصوص، في تشقيق المادة النصية وفصلها عن سياقها التاريخي ليتسنى له دراسة النصوص وكشف أبعادها السردية ثم إعادة ربط هذه الأبعاد بالسياق التاريخي.

وهذه المعالجة المنهجية من شأنها تحقيق أمرين، الأول: عدم إلحاق النص الأدبي بالتاريخ ليغدو نصاً تاريخياً. والثاني: حتى لا يصبح النص الأدبي متعالياً على سياقاته الثقافية ومكوناته الدلالية وفضائه التاريخي.

* كاتب من الاردن

شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي (التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل) الطبعة الثالثة. دار رؤية للنشر. القاهرة. مصر. 2006

شعيب حليفي (القدس العربي)

«قطرات متصلة بيضاء» و«شيء من الانتباه» التسجيليان يستقطبان جمهوراً كبيرا في ظل غياب الانتاج الروائي

بغداد ـ من خليل جليل:

استقطب الفيلمان التسجيليان العراقيان «قطرات متصلة بيضاء» للمخرج فتحي زين العابدين و«شيء من الانتباه» للمخرج صائب حداد اللذين عرضا الاثنين على شاشة قاعة المسرح الوطني في بغداد اقبالا لافتا من جمهور يفتقد الى الانتاج السينمائي الذي تأثر شانه شان جميع اوجه النشاط الثقافي بالوضع الذي يعيشه العراق.

وقال رياض عبد الحافظ مدير دائرة السينما والمسرح التي نظمت العرض لوكالة فرانس برس «نسعى من خلال هذه الافلام التي تم انتاجها هذا العام الى اعادة الصلة بين جمهور السينما العراقي والفن السابع الذي شهد سكونا مؤثرا خلال الفترة الماضية».

واكد مديرة هذه الدائرة التابعة لوزارة الثقافة العراقية ان «مظاهر العنف التي تحيط بنا لن تستطيع ان تجمد نشاطنا وابداعنا ورغم الظروف التقنية والحياتية الصعبة التي تواجه اسرة السينما في العراق تمكنا من انتاج الفيلمين هذا العام».

ويسلط فيلم «قطرات متصلة بيضاء» الضوء على الحقبات التاريخية التي تعرض خلالها العراق وتحديدا مدينة بغداد الى الاحتلال وما تركته تلك الفترات من اثار على العراقيين عبر عدة اجيال ليبدا من داخل فصل مدرسي حيث يقدم احد الاساتذة مادة عن تاريخ العراق ابان احتلال المغول لبغداد عام 1457.

ويحكي الفيلم الثاني «شيء من الانتباه» معاناة الاطفال من نزلاء دور الايتام والظروف القاسية التي يعانون منها بعد ان فقدوا اسرهم في الحروب التي شهدتها البلاد واصبحوا ضحايا الحروب ومظاهر العنف الانساني والاخطاء الفادحة والطائشة التي دفع هؤلاء الاطفال ثمنها غاليا.

واعتبر المخرج فيلمه «رسالة الى المعنيين لتوجيه اهتمامهم ورعايتهم لهؤلاء الاطفال والتخفيف من معاناتهم الاجتماعية».

يشار الى ان صناعة السينما في العراق تواجه مشاكل تقنية ومادية صعبة بسبب الاضرار التي الحقها الغزو الامريكي في اذار/مارس 2003 بدائرة السينما والمسرح التي فقدت العديد من اجهزتها ومختبراتها الخاصة بصناعة الافلام.

وسعت الدائرة الى اعادة الحياة الى الفن السينمائي عبر هذه المحاولات الانتاجية التي تشكل رغم تواضعها خطوة هامة على طريق احياء السينما بعد ان ارغمت الظروف السائدة اصحاب العديد من صالات العرض في العاصمة بغداد على اغلاقها وتحويلها الى مستودعات او مقاه.

وقال عبد الحافظ ان «الحضور الذي شهدته صالة المسرح الوطني عكس مشاعر الانتصار التي حققها المبدعون العراقيون وهم يقدمون هذه الوثائق التاريخية رغم الظلام والعنف اللذين يغلفان الحياة».

واعتبر المهتمون بالفن السينمائي هذه العروض فرصة هامة وقال احمد عبد الجبار (22 عاما) الطالب في اكاديمية الفنون الجميلة «بعد ان اغلقت صالات العرض ابوابها لم يعد امامنا سوى الحضور الى هذه الصالة لنعوض ما افتقدناه».

كما تسعى دائرة السينما والمسرح الى تشجيع الفنانين العراقيين الشباب للدخول في تجارب سينمائية من خلال تنظيم مهرجانات للافلام السينمائية والوثائقية والقصيرة لاقت اقبالا لافتا.

وكان فيلم «غير صالح للعرض» اول فيلم سينمائي يتم تصويره في بغداد بعد سقوط النظام السابق وشارك فيه عدد من الفنانين العراقيين المعروفين في مقدمتهم يوسف العاني وعواطف السلمان.

وهناك ايضا اعمال لعدد من الفنانين العراقيين المقيمين خارج البلاد بعد احداث اذار/مارس 2003 من بينها فيلم «الكيلو متر صفر» الذي اخرجه الفنان الكردي هونر سليم المقيم في فرنسا. (ا ف ب)